

الأبعاد الدلالية للأنثى في شعر علي الباز

The Semantic Dimensions of the Female in Ali Al-Baz's Poetry

الدكتورة/ عنود عبد الجبار كريدي العنزي

دكتوراه في الآداب، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الاسكندرية، جمهورية مصر العربية

المخلص:

اختلفت صورة المرأة في الشعر العربي الحديث عن صورة المرأة في الشعر القديم، حيث بدأت المرأة في هذه المرحلة الشعرية تدخل بشكل جديد مختلف عن الصورة التقليدية التي أخذتها في الشعر العربي.

وما يتحدث فيه الباحث عن أحد شعراء الشعر الاسكندراني المعاصر. الشاعر علي الباز. شاعر مصري معاصر استطاع بأدبه وما يتمتع به من شاعرية أصيلة أن يحتل مكانة متميزة للغاية بين معاصريه. كان من مصر (إلى الكويت حيث يعمل هناك). فلقد أثر غياب الشاعر عن مصر لمدة طويلة في ذبوع اسمه على النحو الذي كان جدير به، وهذا أيضاً من الأهداف والنتائج التي سعت الرسالة إلى تحقيقها من خلال تسليطها الضوء على هذا الشاعر المتميز.

وتناول الباحث البحث من عدة فصول. كالتالي: الفصل الأول: صورة المرأة الأنثى وثنائية الذكر والأنثى الفصل الثاني: المرأة الأرض والوطن الفصل الثالث: المرأة العشق والرمز الصوفي الفصل الرابع: رمزية اللغة الفصل الخامس: رمزية الصورة. وخاتمة.

الكلمات المفتاحية: الأبعاد الدلالية، الأنثى، علي الباز، شعر

The Semantic Dimensions of the Female in Ali Al-Baz's Poetry

Abstract:

The image of women in modern Arabic poetry differed from the image of women in ancient poetry, as women in this poetic stage began to enter a new form different from the traditional image they took in Arabic poetry. What the researcher talks about is one of the contemporary Alexandrian poets. Poet Ali Al-Baz. A contemporary Egyptian poet who, with his literature and original poetics, was able to occupy a very special place among his contemporaries. He was from Egypt (to Kuwait where he works there). The absence of the poet from Egypt for a long time affected the popularity of his name in the way he deserved, and this is also one of the goals and results that the thesis sought to achieve by shedding light on this distinguished poet. The researcher dealt with the research from several chapters. As follows: Chapter One: The image of the female woman and the duality of male and female Chapter Two: The woman, the land and the homeland Chapter Three: The woman of love and the mystical symbol Chapter Four: The symbolism of language Chapter Five: The symbolism of the image and conclusion.

Keywords: Semantic Dimensions, Female, Ali Al-Baz, Poetry.

المقدمة

تتناول هذه المقدمة أسباب اختيار الموضوع، حيث أن القراءة الأولى في الشعر السكندري المعاصر أوقفتني أمام حشد من المبدعين السكندريين العظام، لكن كان دائماً دافعاً ما يجعلني أتوقف أمام "علي الباز" بما شغل من مناصب وما أصدر من دواوين، وأهم ما شدّ انتباهي تركيزه على العيون، وكان أن تساءلت: أن العيون عنده حقيقة أم رمز؟ وكيف أنه يتعامل معها وكأنه رجل متصوف يبوح بشيء مما عنده؟ لكنه يطوى جانباً آخر في طي الكتمان؟

إنه علي الباز، شاعر التعبير الأول شاعر التفعيلة، شاعر الإحساس، شاعر الغربة، وأيضاً شاعر العيون، تلك العيون التي رأى بها الشعر من قلبه، وسعة علمه، وقدرته على التعبير، وكثرة التناص القرآني، والحب الإلهي وتتداخل الصور والأشكال في النص المبدع.

مما لاشك فيه أن المرأة تُعدُّ جزءاً لا ينفصلُ بأيِّ حالٍ من الأحوال من كيان المُجتمع الكُلِّيِّ، كما أنَّها مُكوِّنٌ رئيسي للمجتمع بل تتعدَّى ذلك لتكون الأهم بين كل المكونات، وقد شغلت المرأة عبر العصور أدواراً مهمّةً، ويُعدُّ دورُ الأمومة أهمَّ الأدوار في حياة المرأة ودوراً أساسياً في قيام المُجتمع والحضارات والأمم، فبدونها لا يُمكن أن يكون لدينا علماء وعُظماء يمنحون التَّغيير الذي يحدث في الحياة ويُساهمون في تغيير الواقع تغييراً جذرياً بما يفيد الإنسانية، إنَّ من أدوار المرأة التي تفرضها عليها المسؤولية التي تنبثقُ في نفسها أن تُساند زوجها وتمسك بيده وتشدَّ عليها في وقت المصاعب والشدائد، حيثُ إنَّ المرأة هي من تدفعُ الرَّجل وتُحفِّزه ليخطو للأمام وغير ذلك أن أشار إليها الدكتور علي الباز في شعره انها الدفء المعنوي وفيض من ينابيع الخير وشعور قدسي، مما يسمو به في الصورة الشعرية إلى عاطفة الأمومة وشفافيتها .

اختلفت صورة المرأة في الشعر العربي الحديث عن صورة المرأة في الشعر القديم، حيث بدأت المرأة في هذه المرحلة الشعرية تدخل بشكل جديد مختلف عن الصورة التقليدية التي أخذتها في الشعر العربي

فالقرن العشرين يعتبر عصر حضارة لا بدواة فيه تزخر المدن بمظاهر الترف وال عمران وهذا يدعو إلى شيء كثير من حرية المرأة وخروجها إلى شوارع الحياة، تشارك الرجل فيما يعمل وتكد لتحصل هي أيضا على أداة الحياة مادام الزواج يتناقص، ومادام عدد النساء يتزايد كل يوم حتى ضاقت المرأة ذرعا بذلك وقد انصرف عنها الرجل إلى درجة ما.

ولقد انعكس هذا كله على الشعر وتغير تناول الشعراء لصورة المرأة وصوروها بكل معاني الانحلال وتراجعت كل معاني الدفء والأنوثة والحب التي كانت تحيط بصورة المرأة إلى أن صوروها جسدا بلا روح.

ولكن اختلفت صورة المرأة في حركة الحدائث الشعرية، فالمرأة هنا موضوع قائم بنفسه، يسعى الشاعر إلى توضيحه من خلال التحليل والتركيب والكشف عن الإحساسات الدفينة وبيان العلاقة القائمة بينهما، وهي هنا مستوى من مستويات القصيدة، متداخلة في موضوعات عدة سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية، وهي رمز أو معلم من معالم الحياة، يستخدمه الشاعر في مواجهة معالم أخرى في بناء قصيدته بناء عضويا دراميا متكاملًا.

الفصل الأول: صورة المرأة الأنثى وثنائية الذكر والأنثى

المرأة هي المرأة الأنثى، والمرأة الفاتنة، أو المرأة الجسد، والمرأة الغريزة، والمرأة الراغبة، والمرأة الممتعة. وكل هذا أو غيره يعي المرأة الواقع في شعره. كما تحدثت عن المرأة الواقع في نبلها، وسموها، وإنسانيتها، وتضحياتها، وعفتها، وكرامتها، وكرمها. كالمراة الأم، والمرأة الزوجة، والمرأة الأخت، والمرأة الابنة.

فقال عنها علي الباز بعنوان صغيرتي:

أصغيرتي .. عصفورتي
من ذا رماك على الهوى
أقد استوى بستان عُودك؟!
وأخاف .. لو عينك .. قاربنا الهوى
أن تيكيا .. رُحماك .. لا أتحمّل⁽¹⁾.

يخاف عليها من الحب لما فيه من ألم ولوع دائماً وما يعرف عنه بمصاحبته للعذاب ويصفها بأنها طفلة الصغيرة وما تحمله من براء لا يقابله ألم الحب.

وقد صنفت المرأة إلى صنفين، الأول: المرأة الجسد والغريزة والأنوثة. وهو الصنف الذي دار حوله جل غزله ونسبيته وتشبيبه، بل ومغامراته الشعرية. والصنف الثاني: المرأة الروح، والفضيلة، والسمو، والعفاف، والتضحية والإيثار⁽²⁾.

هل سمعنا عن السحر الإنساني فالحب سحر روحي، إلا أنه قد يكون سحر إلهي من الخالق فيسحر روحك بعيناه كما أنك ترى الوجود بلمس آخر في وجوده فتكبل العينين ليس عليه سلطان يأسر القلب.

أما عن وصف علي الباز للمرأة كما في "أمطريني حُباً":
يا حبيبي .. وكل ما فيك سحرٌ
أى سرٍ تحويه عينك .. حتى
يأسر القلب، وهو - قَبْلُ - أسيرُ!⁽³⁾

(1) د. الشاعر الباز، الأعمال الشعرية الكاملة، المجلد الأول (الجزء الأول)، دار السفير للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 2010م، ص 14.

(2) د. مصطفى أبو العلا، المرأة في الشعر العربي - قضايا أدبية وفنية، الهيئة العامة، الطبعة الأولى، القاهرة، ص 90.

(3) المرجع السابق، ص 7.

ونجد علي الباز مصوراً جاذبيتها ودلالاتها وأنوثتها، وأثرها على نفسه وكثير ما يعترف بولائه لها، وهي إن كانت مالكة له، فهو لا يرضيه إلا امتلاكاً لها قلباً وروحاً وجسداً. كما في قصيدة يا ليتني لعلي الباز:

وَإِذَا الْخِمَارُ .. لِمَنْ طَغَتْ بِجَمَالِهَا

فَالْبَدْرُ - خَلْفَ - السُّحْبِ - زَادَ.. جَمَالاً !

يَالَيْتَنِي ..كُنْتُ الْخِمَارَ لِسِحْرِهَا

لَأُرَى، وَأَلْتَمَّ حُسْنَهَا، وَأَنَالَ! (1)

ولكن الحب دائماً ما يكون مصحوباً بالألم والعذاب، وعلى الرغم من ذلك فهم لا يصطحب الألم فور لانه لا يعادل شيء من ألم فراقهم ويعلم الشاعر أن اللقاء مستحيل ولكن العشق ليس له سلطان، وإن كان واحداً - إلا أنه يعني شيئين مختلفين تماماً من الرجل والمرأة وما تفهمه المرأة من الحب هو غاية من الوضوح: فإن الحب لديها ليس عبادة فحسب وإنما هو بدل تام للجسم والنفس معاً دون تحفظ ودون النظر إلي أي اعتبار (2).

وصف الدكتور علي الباز أن المرأة تجسد بكل الأبعاد والأعماق وعلى أشمل صورة، وذلك هو مصدر قوتها وغايتها في آن واحد.

ولعل تلك الطبيعة الخالدة والقادرة على تفجير الإمكانيات الإبداعية عند الرجل هي التي دفعت العقاد إلى الاعتراف بها اعترافاً يُرجع الفضل للمرأة وإن غلبها الرجل بمظاهر السيادة وإصدار الكلمة المسموعة والرأي المستطاع.

فأنوثة المرأة بوجه عام تثير في الرجل «شعور القوة وشعور الجمال، وشعور الإنسان كله وشعور الحيوان كله، بل حتى الشعور بما وراء الطبيعة من أسرار موهوبة ومن أغوار لا يسير مداها في النور والظلام. لأن المرأة حين تمثل الأنوثة هي مناط الخلق والتكوين، وأداة التوليد والدوام والخلود .. وهي مظهر القوة التي بيديها كل شيء في الوجود وكل شيء في الإنسان».

وإذا كانت نشأة الحب ترجع إلى جملة من البواعث والأسباب منها البيولوجي والنفسي ومنها الاجتماعي ومنها الإحساس بالجمال الذي لا يمكن دفعه (3).

والخلاصة في هذا الفصل أن الرجل يستطيع أن يغزو العالم إذا كان بجواره امرأة، وإن المرأة تستطيع أن تغزو العالم إذا فقدت الرجل.

(1) المرجع السابق، ص 355.

(2) محمد عبد الواحد حجازي، سيرة الحب والجمال، ص 120.

(3) محمد عبد الواحد حجازي، سيرة الحب والجمال في حياة العقاد، دار الوفاء، ط1، 2004م، ص 147.

كما توصلنا الى صور المرأة المتعددة لدى الشاعر الدكتور علي الباز وأن لا مجتمع بلا أنثى.

الفصل الثاني: المرأة الأرض والوطن

إن المرأة هي مصدر الوحي، سواء كان وحيًا طيباً أو سيئاً. ولكل رجل يصاب بالخمول والفسل في الحياة "امرأة" تهوي به إلى الحضيض ولكل رجل يرتفع في العالم إلى مرتبة النبوغ والعظمة "امرأة" تسمو به وتبرز عبقريته وتدفعه إلى الأمام، فالمرأة هي القوة المسيطرة – (تماماً كالطاقة الذرية!) (1).

فالمرأة في شعر دكتور علي الباز إحساس متجدد، طاقته التي يستوحى منها شعره، مصدر إلهامه كالطبيعة يبعث له إحساس شعره فالمرأة روح وأرض ووطن.

وتمثيلها بالوطن لأنّ هذا الوطن مهما ابتعدنا عنه، لا يغيب عن أذهاننا ولو للحظة، فهو الحاضر الدائم في العقل والقلب، ففيه النسيم الذي يردّ الروح إلينا عندما تضيق بنا الحياة، وفيه الركون إلى السلام وراحة النفس، وفيه الأصالة والمعاصرة.

كما وصف الشاعر المرأة الوطن نراه يجسد لنا الطبيعة في امرأة وكما أننا نعرف ما تفعله الطبيعة من أثر الإحساس فيقول علي الباز في قصيدة (في حُب شاعرة .. اسمها : مصر):

النيلُ والخُلْدُ في عينيكِ والهَرْمُ

والمجدُّ .. والوجدُ والأشعارُ والنغمُ

للأرضِ قلبٌ؟ وهل بالحب يضطرمُّ

وهل نسيثٌ؟! .. فإن الأرض لي رَحْمُ

وأعودُ .. فالأرض بدءٌ .. ثم مُختتمٌ (2)

كما أننا نجد التشبيه مصر بامرأة وحبها المتجدد الذي لا يفنى ولا يزول وهي مكانة عالية في حياة الشاعر، ونرى غيرته في حجب اسمها وكأنها كنز قلبه الذي يأبى أن يشاركه فيه أحد، كما ان الحواس والعقل والوجدان لها والشعر والنثر خاص بها.

ومصر عند علي الباز امرأة في دمه، كما قال الشاعر:

(1) منيرة ثابت، ثورة في البرج العاجي، القاهرة، 2013م، ص 156، 157.

(2) د. علي الباز، الأعمال الكاملة، ص.

وأعلن اسم الحبيبة .. أكشفُ

ستر الحقيقة .. أعلن سرّي

أقدمُها .. ما عشقتُ سواها

ففي حبّها .. كلّ شعري ونثري

أيا امرأةً .. تسكنين دماي

تعالى .. أمام الجميع .. مُرّي (1)

شخصية الحب صادرة عن شخصية المحب ذاته سواء أكان رجلاً أو امرأة وكذلك عن شخصية الجمال فهي أيضاً مزدوجة الطابع او متبادلة الطابع بمعنى أن شخصية الجمال صادرة عن شخصية الجميل الذي قدر الجمال، وعن شخصية المحبوب الذي هو مركز الإشعاع الجمالي.

لكن علي الباز رأي المرأة من رؤية خاصة، إنها ليست امرأة بمعنى الانثي والمشاع المتوارث أنها هنا وعند العشماوي الشاعر معادل الحياة الطبيعية، المرأة ... الخير ... الحب ... الطفولة ... البراءة ...، أو لنقل: المرأة النجاة، أو المرأة الوطن.

كما عبر عنها علي الباز في صورة الوطن بعنوان امرأة في دمي والتعبير عنها مجازاً عن العاشق الهائم في العشق فيعلن اسم عاشقته (الوطن)، وذلك بعد أن توهمت كل حبيبه من حبيباته أنها تلك المرأة.

الحب ما هو إلا اشتغال المشاعر والأشواق، فهو بمثابة السمو الروحي للإنسان، وهو مشاركة حتى في الألم سحر الحب يسبب هرمون السعادة وإذا اتجهنا علي هذا النحو علمياً فإنه يمد الإنسان بالطاقة ورفع المعنويات وتنشيط القدرات العقلية كما قال علي الباز في قراءات .. في العيون .. الشاعرة

أه .. من شعري .. وما يصنع في

هو أنفاس الهوي .. في رنتي

هو منّي .. هو أشواقي .. إلي

أسكرَ الشعرُ .. وصحّي شفتي (2)

واخيراً، توصلنا الى معنى كلمة وطن من خلال الشاعر فالوطن هو الاحساس بالامان والدفء كذلك المرأة وطن وحياة الرجل، فالمرأة هي الحب والخير والعطاء والبراءة ... الخ

(1) د. علي الباز، الأعمال الكاملة، ص.

(2) المرجع السابق، ص 90.

الفصل الثالث: المرأة العشق والرمز الصوفي

المرأة العشق وحب المرأة من الموضوعات التي تأتي على رأس تلك الموضوعات التي برزت فيها خصائص واضحة. ذلك لأن ظروف حياتهم القاسية التي انغمسوا في حمايتها، وذاقوا علقمها، جعلتهم يفرون إلى شعر الحب وعشق المرأة، يطفئون به جمرة البؤس والحرمان، ويذهبون به هدي أرواحهم ويتخذون منه غذاء يعوضون به ظلم الدهر لهم بل أكثروا منه في دواوينهم وسائر نتاجهم الشعري.

وتأتي المرأة المعشوقة والعاشقة، في شعر علي الباز، معادلاً لتجسيد هذا الإحساس المترع بالحب والجمال ودفء الحياة، فما الحياة سوى امرأة جميلة تحبها وتحبك إنها الشعر في أسمى تجلياته⁽¹⁾.
كما نرى معشوقته في قصيدة امرأة في دمه يتغنى علي الباز في حب مصر، ومصر هنا الرمز، ويتمنى دائماً أن تنطلق فيها الحرية كاملة بلا أسوار ولا قيود، فهو عاشق لها وللحرية فيقول:

أيا امرأة قد وهبت حياتي

غرامي وعشقي .. وقلبي وفكري

وكذلك قصيدته التي يرى فيها أن مصر القوية الحرة، وهي أم البلاد، ويراهما أنها هي أجمل ما في الوجود، وهي قصيدة افتحي الباب، ويقول علي الباز:

افتحي الباب للصباح الآتي

فد كفانا ما مر من ظلمات⁽²⁾

تتوزع مفجرات الهوس الإبداعي إذن عند شاعرنا الدكتور علي الباز على عدة محاور أهمها الدفوع العاطفية والعقائدية ...

وتتحرك كل هذه الدوافع من خلال ذات رومانسية شفافة تتسم بالرقّة المتناهية وتواشج بشكل واضح بين الملامح العذرية للشاعر العذري القديم واللامح الصوفية لشعراء المتصوفة.

الحب تجربة تتحرك في فضاء الفجيرة، هكذا نجد بذور هذا الوعي القديم مترسخة في ذاتنا المبدعة، حيث المبتلى بالحب كالراهب الذي يتعبد في محراب حبيبته، عاطفة مقدسة، أو رؤية تسمو بهذه العاطفة لدرجة القداسة.

العشق مرض وداء لا شفاء منه مدى الحياة ولا مخرج منه. علي الباز هو العاشق الذي يريد أن يصيب معشوقته ما أصابه فيقول علي الباز في قصيدة أدعو عليك:

(1) د. علي الباز، ما بعد العشق، ص 194.

(2) د. علي الباز، تعبت من العشق، ط 1، ص 97.

ولكن الحب دائماً ما يكون مصحوباً بالألم والعذاب، ولكن الألم لا يعادل شيء من ألم فراقهم ويعلم الشاعر أن اللقاء مستحيل ولكن العشق ليس له سلطان، كما في قصيدة وراء السراب يقول علي الباز:

إن العشق اضطرار وليس اختيار فالعاشق لا يلازم معشوقه لانه يختار ملازمته بل لأنه لا يستطيع فراقه، وإن الغزل يكون تعبيراً عن خصائص نفسية وفطرية وجودية، إذا صدر الغزل عن هذه المقومات فإنه يكون تعبيراً عن الفرح والغبطة .. وتعبيراً عن البأس والشدة .. وتعبيراً عن القلق والحيرة .. وتعبيراً عن الحنان الرحمة .. وتعبيراً عن الحرمان والذلة.

لعلنا نلاحظ بجلاء أن قاموس شاعرنا علي الباز يواشج بين قاموس الحب العذري العفيف الذي يبتعد كل البعد عن التعرية وقاموس المتصوفة من الشعراء حيث التسامى والكشف، والإسراء والشفافية، إنه يتغزل في حبيبته وكأنها ملاك أو حورية من بنات الجنة.

أه.. لوحورّ - على رسمك - في الجنة

صارت لي - ويا سعدى - إلفاً؟! (1)

أغمض عينيك يا أنت .. وأنتِ

شِعْرُكَ الصامتُ..

يعلو فوق صوتي

أسكتي الأشعار فيها(2).

الخيال أحياناً إنما يكشف نوعاً من الحقيقة، وأنه حين ينشط يرى أشياء يعمي العقل العادي عن رؤيتها، وأنه يتصل اتصالاً وثيقاً بالبصيرة أو الشعور.

إلا أننا نجد أن أحياناً يرتبط الحب بالموت، وتلك نظرة فيها شيء من الرؤية الصوفية، وشيء من الرؤية السريالية للمرأة باعتبارها الأنثى الخالقة، والرحم الكونية، فيظهر التجاوب بين المرأة وبين ما في الكون من مظاهر طبيعية، فحيث يكون الظلام والبرد والسكون الموحش، تكون الوحدة والنسيان، ويبقى ما في داخل الأنثى من عطاء كنزاً مخفياً.

ففي النهاية الحب سمه تسمو بصاحبه إلى كل ما هو أرقى مكانه سواء كانت معنوية أم مادية فكلا الحالتين المعنوية تسمو بالمادية ولكن إذا هي تتدلى فإن للعشق لدى علي الباز كبرياء وإن جمال العشق في كبريائه وألمه فيقول:

(1) د. السعيد الورقي، دراسة نقدية حول الدكتور علي الباز، ص 79.

(2) د. محمود عبد الصمد زكريا، الدكتور علي الباز بين العذرية والتصوف، ط1، ص 28، 27.

العشق كبرياء

إنما العشقُ كراماتٌ، وإكبارٌ ..
.. ولا كِبْرٌ، وإلا .. كان جهلاً
كبرياءُ النفسِ عندي فُوقَ عِشقي
فَلئنْ تُهدِرْ .. فهدِرُ العِشْقِ .. أولى
فلأعشِ بالعِشْقِ .. إن يُكرِمَ سيُكرِمُ
أو .. بلا عِشْقٍ .. فذا .. مُرٌّ .. وأحلى⁽¹⁾

ونخلص الى أن الرومانسية تميل الى البساطة لا التعقيد والشاعر يعبر عن المرأة التي أحسها، وهناك العديد من الشعراء خاصة الصوفية من اتجه إلى الخيال لما له صلة بالحقيقة وخاصة تمثلت بأساليب متميزة، وكانت صورة المرأة هي الصورة التي دخل عبرها الشاعر إلى عالم الرومانسية.

الفصل الرابع: رمزية اللغة

لكل شاعر معجمه الخاص، وطريقته في التعبير عن تجربته، وعلى الرغم من أن اللغة مشتركة، فإن الشاعر الحق هو الذي يستطيع أن يجعل لنفسه لغة منتقاة تملك في الوقت نفسه صلة التواصل مع الآخرين، فاللغة هي المادة الخام التي ينتقي منها الأديب معجمه، والمعجم الشعري هو فن اختيار الألفاظ وترتيبها ليراد من معانيها خيالاً جمالياً وهذا هو المعجم الشعري.

وهو مذهب في الأدب والفن ظهر في الشعر أولاً، يقول بالتعبير عن المعاني بالرموز الإيحاء، ليدع للمتذوق: نصيباً في تكميل الصورة أو تقوية العاطفة، بما يضيف إليه من توليد خياله

وشعر الدكتور علي الباز فيض من الجمل والتراكيب لذلك العاشق الذي يؤسس نظريته الشعرية على أن الحياة ليست امرأة وإنما نجد تحريكه لصور الألفاظ وفن السحر والانخداع بالعين وهذا التوهج المذيف كما في قصيدة (أتخونُ شاعراً ها .. العيونُ؟!) من ديوان (معشوقيه)، يقول:

ما كان حُبِّكَ

غير خدعة أعينٍ

كحلتها بخديعةٍ وشبائكٍ

(1) د. علي الباز، الأعمال الكاملة، ص342.

أتخونُ شاعرَها العيونُ!

فهماهما

قد خانتنا في الهوى عيناك! (1).

وعندما نجعل من اللغة موضوعاً للدراسة فلا بد أن ننظر فيما قدم من جهود أنصبت علي ربط اللغة بالنص الأدبي خصوصاً، واللغة باعتبارها المدخل الأصيل للنص الأدبي يمكن أن تحتوي على عناصر غير لغوية، إذ هي تقوم على ثنائية (الدال والمدلول) أو الشكل والمضمون، فالدال هو الصوت المنطوق أو المكتوب، والدلالة هي المحتوي الذي يشير إليه ذلك الصوت، ولا شك ان هناك عوامل كثيرة تكتنف هذين الطرفين، بعضها يعود إلى الخواص الذاتية في الأداء، وبعضها يعود إلى طرفي الاتصال من مبدع ومتلقي (2).

والشعر قوامه من الكلام الذي لا ينبغي أن يؤخذ مأخذ الأداة التي يتحقق بها الاتصال بين المتكلمين ويقع الفهم والإفهام، بل الكلام يطابق ما يعرف عادة بالوعي الإنساني، ولا يوجد الوعي إلا مع إمكان الكلام وخلق اللغة، ولا شيء يسبغ علي الإنسان الوعي بنفسه وبما في العالم سوي تنمية الأشياء كلها كبيرها وصغيرها، فالكلام واللغة من جهة الوظيفة كالوعي سواء بسواء، واللغة مجال يعمل الشعر فيه عمله غير أنه لا يأخذها مأخذ المادة المصنوعة بل يدخل اللغة في حيز الإمكان، فالشعر لا يتلقي اللغة قط مادة يتصرف فيها كأنها معطاة له من قبل بل الشعر هو الذي يبدأ يجعل اللغة ممكنة، والشعر هو اللغة البدائية للشعوب والأقوام، وإذن فيجب أن نفهم ماهية اللغة من خلال ماهية الشعر (3).

وإذا كانت اللغة هي أداة التعبير الناطقة بلسان الإنسان فإن حاسة السمع تكون مدخلاً لرؤية الإنسان جوهر ما وراء الكلمات، فحاسة الإبصار هنا مرتبطة بحاسة السمع.

إن غاية الشعر هي التأثير والتأثير يعني تغييراً في الاتجاه وتحولاً في السلوك. والبداية هي تقديم الحقيقة تقديماً يبهر المتلقي من ناحية، ويبيده من ناحية أخرى. كل هذا بضرب بارع من الصياغة، تنطوي على قدر التمويه، وتتخذ معه الحقائق أشكالاً تجلب الأبواب وتسحر العقول، فتبدي الحقائق من خلال ستار شفيف يضفي عليها إبهاماً محبباً يثير الفضول ويغذي الشوق إلى التعرف. يقول علي الباز من قصيدة (أكنتُ أخلُمُ!؟):

(1) د. علي الباز، معشوقيه، ص 95.

(2) د. محمد عبد المطلب، الأسلوب في شعر الحدائث "التكوين البديعي"، دار المعارف، الطبعة الثانية، 1995م، ص 13.

(3) د. لطفي عبد البديع، الشعر واللغة، دار المريح، السعودية، 1990م، ص 7.

تقولين: "شكراً على الشعر" .. لولا

بهاء عيونك، ماقلت شعراً!

فمن ذا الذي يستحق الثناء؟

سوى سحر عينيك .. يا سحر شكر (1)

يتميز علي الباز بخصوصية في فنه، خصوصية الأسلوب السهل التراكيب، وتشخيص الطبيعة وجمال الأسلوب القائم على سهولة الألفاظ الدعوة إلى التجديد والابتكار شكلاً ومضموناً إلى حد كبير، فلغته هي لغة الحياة اليومية وإيقاع العصر، أنه لا يفتعل الكلمات، ولكنه يمتلك ناصيتها بجدره، أي البساطة في تراكيب اللغة من تراكيب الجمال الإيقاعي وإن كان هناك اختلاف رئيسي بين اللغة في قصائد، واللغة خارج القصائد أن إحداهما بها قدر أكبر وأحكم من البناء مما في الأخرى، وأن النظام الأكثر تعقيداً في القصائد يمنح الشاعر سيطرة بها يستغل الخصائص المتنوعة للغة بصفة عامة.

فالشعر الرمزي رؤي أحلام نشوي في عالم الواقع والوعي فيلجأ أصحابها إلي اللاوعي يعبرون عنه بالرمز وما يعبرون إلا عن أحلام شارده غامضة لا تؤدي كثيراً بدعوي الفن للفن ولعل الشاعر الرمزي يحس بهذا فيعوضنا عن العطاء الفني بلف صورة في الغموض ليروعنا ويهزنا إلي حلها واكتشاف أسرارها وهو يتوسل إلي هذا بتخديم الصوت واللون مع تقديم الألفاظ في الصياغة وتأخيرها لتكون أقدر علي الإيحاء والإشعاع (2).

الفصل الخامس: رمزية الصورة

من أحد وأهم الظواهر البارزة في شعر علي الباز، هي ظاهرة الإيحاء باللفظ والصورة، واستهداف الأبعاد الثنائية والثلاثية، وهي الأبعاد التي لا تكتفي بالبعد الأول القريب والظاهر، وفي دواوين الشاعر علي الباز ترتدي الألغاز.

والصور هي الصديق المصاحب للغة حيث إنها لغة الشاعر الطبيعية وهي حقيقة بمقدار ما تعبر عن نفاذ البصيرة والفكر واتحاده بالشعور. والإعجاب بصورة مفردة، أو صور شتى في قضية لا ينبغي أن يخذعنا عما ينبغي أن تخضع له الصور في مجموعها (3).

(1) د. علي الباز، معشوقيه، ص 98.

(2) د. نعمات أحمد فؤاد، خصائص الشعر الحديث، ص 48.

(3) د. محمد حسن عبد الله، الصورة والبناء الشعري، دار المعارف، القاهرة، ص 192.

وتلعب الصورة الشعرية جزئية كانت أم كلية، دوراً هاماً وأساسياً في تحديث البنية التقليدية في شعر علي الباز فهي أولاً صورة ممتدة متداخلة كثيرة الجزئيات، تقوم على التوليد المستمر، وكأنها حركة دوائر تتسع وتتسع دون أن تقف عند حد، وهي أيضاً وتتسم بالعمودية القصديّة فهي عفوية إلا أنها تستند إلى بصيرة داخلية تجمع خيوط الكون وعلاقاته في نسيج واحد، فهو من نسيج مبهّر بعلاقاته وتداخلات تراكمية، مع أنه يبدو تلقائياً عفويّاً:

وهل أنساك .. مبتدأ لعمرى

فحين رايتك ابتدأت حياتي

ودقّ القلب بعد سنين صمت

وأيقظني - بحبك - من سبات⁽¹⁾

وترتكز شاعرية علي الباز، على تجميعه وتحريكه لصور الألفاظ، فالألفاظ بين يدي الشاعر تعاويد شعرية تستند على طاقات انفعالية، وعلى صور تثير هذه الطاقات، بما تملكه من مثيرات فردية وجماعية، والشاعر لا يكون شاعراً إلا إذا كانت الكلمات في يده تعويذة ساحرة، فالشعر هو فن السحر بالكلمات والصور، السحر بما فيه من خلق، وإعادة خلق وبما فيه من استحضر، وبما فيه من سيطرة وجدانية لا تفيق من أسرها، ولقد استطاع علي الباز في شعره، أن يعيد صياغة الألفاظ، وتشكيل ألفاظه في أبنية جديدة، تصل أحياناً إلى حد تفريغ الألفاظ من المحتوى الدلالي المتعارف وإعادة شحنها بطاقات إيحائية جديدة تحمل من التفرد والذاتية ما للشاعر من تفرد وذاتية⁽²⁾.

غدت الصورة ميراثاً كاللغة تماماً وتحولت إلى ميراث ثقافي إذ إنها في تراثنا العربي أشبه ما تكون بالأنسفة والأنظمة، فإن صورة الأنثى منذ الشعر القديم تتمدد في فننا القولي حتى جاءت إلى شعرنا وأصبحوا يبدعون من خلالها، والشاعر الحديث بلغ وعيه بقضايا محيطه الاجتماعي والوطني جداً طيباً، وقد استقرت الأرض في وعيه ولا وعيه على السواء صورة الأنثى فثبت من جديد ليتغزل فيها ويقدم لها وصفاً بل ليقدّم الأرض من خلالها⁽³⁾.

الفصل السادس: موسيقى الشعر

الموسيقى عنصر جوهري في الشعر، لا قوام له بدونها وهي أقوى عناصر الإيحائية فيه، حتى لقد قيل أن الشعر موسيقى ذات أفكار.

(1) د. سعيد الورقي، دراسات نقدية حول علي الباز، ص 39.

(2) د. علي الباز، ما بعد العشق، ص 1950.

(3) د. عبيد أبو زيد، شعر فدوي طوقان، جماليات التشكيل، ص 89.

هناك نوعان من الموسيقى في أي قصيدة: موسيقى خارجية: تعتمد على القالب أو البحر الشعري المستخدم، وهو ما يمسّ الناحية الشكلية من الشعر. موسيقى داخلية: تتولد بفضل انسجام الحروف والكلمات والجمل والعبارات، وهو ما يمسّ جوهره ومضمونه.

تتفاعل الموسيقى الداخلية مع الموسيقى الخارجية لإحداث النغم الموسيقى وإيجاد البنية الإيقاعية للقصيدة. هي أصعب من الموسيقى الخارجية، ففي الخارجية هناك بحرٌ يحكمك بتفعيلاته ووزنه، أي يكفي أن تكتب على هذه التفعيلات لتُحقّق الموسيقى الخارجية فحسب، أمّا الموسيقى الداخلية فتتسع لتشمل اختيار الشاعر لحروفه وألفاظه وإبداع صورته وأخيلته لإيجاد التناغم بين أجزاء الجملة الشعرية وتحقيق الثراء الموسيقي. في موضوع تقنيات الشعر، تعرّفنا إلى بعض هذه التقنيات، في هذا الموضوع سنعيد بعضها ونضيف إليها.

أما أسلوب علي الباز الشعري، فإنه يعتمد إلى شعر التفعيلة أو (الشعر الحر) هو الشعر الذي يتخذ التفعيلة أساساً عروضياً للقصيدة، وهو لا يتقيد بعدد معين من التفعيلات في السطر الواحد، بحيث قد يشتمل السطر على تفعيلة أو أكثر وصولاً إلى اثنتي عشرة تفعيلة، ويخرج هذا الشعر عن مبدأ تساوي الأسطر، ولا يلتزم بقافية واحدة في كامل القصيدة، وهو الشعر الجديد، وكان هذا الشعر على يد الناقد نازك الملائكة في بغداد عام 1974م، وقد أشارت أنّ الشعر الحر أو شعر التفعيلة أكثر صعوبةً من شعر الشطرين (الشعر العربي الموزون المقفي)، وأنّ شعر التفعيلة هو أقرب للنثر منه للشعر⁽¹⁾.

ولقد اتبع دكتور علي الباز الشعر العمودي الموزون متعدد القوافي الذي يشبه الرباعيات، الملتزم بالتفعيلة ولكنه ليس له تقفية ثابتة. فموسيقى الشاعر هنا لا تصدر عن العلاقات الصوتية التي يؤلفها من التزاوج، أو التقسيم أو العبارات القصيرة المتقابلة فحسب، بل هناك من روح الشاعر وعذوبته صوت آخر يضيف على عباراته نغماً حلواً يلتقي مع إيقاع الالفاظ ويحققان تمازجاً وتألفاً⁽²⁾.

الخاتمة

توقف البحث أمام شاعر مصري معاصر استطاع بأدبه وما يتمتع به من شاعرية أصيلة أن يحتل مكانة متميزة للغاية بين معاصريه. كان من مصر (إلى الكويت حيث يعمل هناك).

لقد أثر غياب الشاعر عن مصر لمدة طويلة في ذبوع اسمه على النحو الذي كان جدير به، وهذا أيضاً من الأهداف والنتائج التي سعت الرسالة إلى تحقيقها من خلال تسليطها الضوء على هذا الشاعر المتميز.

(1) <https://mawoo3.com> تعريف شعر التفعيلة.

(2) د. محمد زكي العشماوي، دراسات نقدية حول علي الباز، ص 9.

وسعى البحث إلى معالجة موضوع الموقف مع المرأة وأوضح إلى أي مدى كان الشاعر علي الباز صاحب رؤية متميزة يرى في المرأة هذا الجمال الجسدي الذي يسهم في جعل الإنسان - بشكل عام - أكثر تحضراً من كافة الوجوه.

على الرغم من أن علي الباز يمتلك ملكة شعرية وحس فني الذي يظهر في استخدامه لاسلوب الرمز والتناص الشعري وتعالق النصوص وتداخلها في العملية الإبداعية إلا انه يتميز بسهولة اللفظ ويميل إلى البساطة ولغته لغة الحياة اليومية وتميز بعدم الاحتفال بالفخامة والجزالة مع قوة التعبير حيث أنه جعل من اللغة أداة ممكنة وكان هو نبت طبيعي لتربة خصبة توفرت له عناصر النمو والازدهار.

وفي الختام يشيد البحث بمكانة المرأة بدلالاتها المتعددة وأبعادها الوجدانية والحسية الذاتية ولا تناقض بين الزاويتين.

قائمة المراجع

- 1) الورقي، السعيد، دراسة نقدية حول الدكتور علي الباز، ص79.
- 2) الباز، (2010م) الأعمال الشعرية الكاملة، المجلد الأول (الجزء الأول)، دار السفير للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ص 14.
- 3) أبو زيد، عبير، شعر فدوي طوقان، جماليات التشكيل، ص 89.
- 4) عبد البديع، لطفي (1990م) الشعر واللغة، دار المريح، السعودية، ص 7.
- 5) عبد الله، محمد، الصورة والبناء الشعري، دار المعارف، القاهرة، ص 192.
- 6) العشماوي، محمد زكي، دراسات نقدية حول علي الباز، ص 9.
- 7) عبد المطلب، محمد (1995م) الأسلوب في شعر الحدائث "التكوين البديعي"، دار المعارف، الطبعة الثانية، ص 13.
- 8) حجازي، محمد (2004م) سيرة الحب والجمال في حياة العقاد، دار الوفاء، ط1، ص 147.
- 9) زكريا، محمود، الدكتور علي الباز بين العذرية والتصوف، ط1، ص 28، 27.
- 10) أبو العلا، مصطفى، المرأة في الشعر العربي - قضايا أدبية وفنية، الهيئة العامة، الطبعة الأولى، القاهرة، ص 90.
- 11) ثابت، (2013م) ثورة في البرج العاجي، القاهرة، ص 156، 157.
- 12) فؤاد، نعمات، خصائص الشعر الحديث، ص 48.

المواقع

- 13) تعريف_شعر_التفعيلية. <https://mawoo3.com>

Doi: doi.org/10.52133/ijrsp.v2.21.7